في الأدب المقارن

الخـــــرافة
في الأدبين العربي والانجليزي
للأستاذ فخري أبو السعود

تفشو الخرافة — وهي الاعتقاد بالمستحيل عقلاً — بين الجماعات الأولية ، حتى تشمل ديانتهم وعلومهم وفنونهم القليلة ، وعرفهم وتقاليدهم ، لأن تلك الجماعات في نشأتها كالطفل في صغره ، قليلة الادراك للأسباب والمسببات ، سريعة الانقياد للعواطف والأوهام والمخاوف ، فلا تلبث أن تنمو بينها شتى الأساطير ، تفسر بها قوى الطبيعة ومظاهرها ، وتمجد بها أسلافها ، وتدعم كيان مجتمعها . هكذا كان لقدماء المصريين خرافاتهم المتعلقة بواديهم ونهرهم ، وآلهتهم وفراعنتهم ؛ وكانت لليونان والرومان أساطيرهم التي تدور حول أعمال آلهتهم وحروبها ، وحبها وغضبها

وكانت للعرب خرافات شتى ، انتزعت من حياتهم البادية ، وما توحي إلى النفس من رهبة وبأس ، بفلواتها وحزونها ، وسباعها وأنوائها ، وحيكت حول الآلهة والجن والغيلان ، وحول أبطالهم وملوكهم وغابر دولهم ، وتناولتها الأجيال المتعاقبة بالزيادة والتهويل ، والتغيير والتبديل ، في حوادثها ومشاهدها

وكانت للانجليز في عهود همجيتهم أساطير متشعبة ، مشتقة من حياة أهل الشمال ، المضطربة بين ظلمات الأحراج ومتون البحار ، حافلة بأخبار هجراتهم وغزواتهم ، ممتلئة بأوصاف شياطين البر والبحر ، ممجدة لبلاء ملوكهم أمثال الملك أرثر ، وألفرد الأكبر ، في دفع هجمات الغيرين الذين تعاوروا الجزيرة على كر العصور ، من رومان وسكسون ونرمانديين ؛ وتمازجت أساطير كل هؤلاء ، واختلط مسيحيها بوثنيها ، وجنوبيها بشماليها

والخرافة على ما بها من مجاوزة للمنطق وتهويل وتحريف واستحالة — لا تقل عن حوادث التاريخ صدقا في وصف أحوال المجتمع الذي هي وليدته ، والبيئة التي هي نتاجها ؛ فالخرافة العربية التي نمت في البادية ، مثلاً ، ملأى بذكر الغيلان والسعالى والعنقاء ، وبأسماء العدّائين الذين يسبقون الظباء ، والحديدى النظر الذين يرون القادم والغير من رأس أميال ، كزرقاء اليمامة . والخرافة الانجليزية التي ترعرعت في الغابة ودرجت على أنباج اليم حافلة بحكايات عرائس الغاب وآلهة البحار ، ومناظر الغسق والضباب

على أن الخرافتين تلتقيان ، والمخيلتين تتقابلان في نواح ، حتى لتخال إحداهما صدى للأخرى أو محاكاة لها ، لولا بعد الأمتين في تاريخهما بعداً يحول دون كل محاكاة أو اقتباس ؛ فأخبار تأبط شراً ، وسليك بن السلكة وأشباههما من شذاذ العرب وطريدي العرف والمجتمع ، مماثلة لحكايات روبن هود وأصحابه الذين كانوا يعيشون على اقتناص الظباء في غابات ملك انجلترا ؛ وقصة مقتل أحد أقيال اليمن على يد أخيه الطامع في عرشه ، التي وردت في كتب الأدب العربي وروى فيها شعر لشاعر يدعى ذا رُعَيْن ، منه قوله :

فأما حِمْيَرٌ غدرت وخانت فمعذرة الإله لذي رعين

واستشارة الخائن للعرّافين قبل اقتراف جريمته ، والخدعة الحربية التي لجأ اليها جيش ابن الملك القتيل من استتار كل مقاتل بشجرة اقتلعها في طريقه وحملها أمامه ، حتى بدا الجيش كأنه غابة تسير ؛ كل ذلك مشابه للحوادث التي اتخذها شكسبير موضوعا لروايته ماكبث ، والتي تدور حول مصرع بعض ملوك اسكتلندا ، وهي بلاد تشبه بوعورتها واستقلالها وبأسها وتأثيرها في عقول أهل انجلترا ، حالة اليمن في جزيرة العرب ؛ وقد عبثت الخرافة بكلتا القصتين ونمقتهما بمظاهر السحر والتنبؤ بالغيب

حتى إذا ما ارتقت الجماعة البشرية ، وأخذت بأسباب العلم الصحيح ، وعرفت الفلسفة المنطقية ، واعتنقت ديناً راقياً ، فترت حماستها لخرافاتها القديمة ، وقلّ تصديقها لها ، وسخر منها العلماء والفلاسفة والأتقياء ، وهبطت إلى طبقة العامة ، فوجدت فيهم وحدهم أمناءها الأوفياء ، يتوارثونها كما توارثها آباؤهم من قبل ، وتروى من نفوسهم ما لا تروى العلوم الجافة ، فهم يؤثرونها على تلك العلوم ، ويمزجون رواياتها بحقائق العلم

تارة ، ويخلطون عقائدها بعقائد دينهم الجديد الراقى تارة أخرى

على أن أكثر الأمم ، كاليونان والرومان وأمم أوربا الحديثة ، حين بلغت طور نضجها العلمى والدينى ، لم تنبذ خرافات طفولتها ظهرياً ، وإن بطل تصديقها برواياتها ، وذهب إيمانها بخوارقها ومعجزاتها ، ولكنها اتخذتها غذاء دسماً للعلم والفن ؛ فجعلها العلم موضع فحصه وبحثه وتنقيبه ، وأقامها مقام الشك حتى تثبت البينة على مافيها من بذور الصدق ؛ واستمد منها النحت والتصوير والشعر والنثر مادة لا تفنى للتفنن فى الوصف والتأمل والتجوال فى مشاهد الحياة ومرامى التاريخ ومنازع النفس الانسانية

ذاك أن أكثر تلك الخرافات — على ما بها من وهم ومثالاة — تحوى ما لا يحصر من صفات الجمال ومظاهر الروعة ، ودلائل العظمة ، وأحاديث البطولة والمخاطرة التى يغرم بها الطبع الانسانى ، وصور الفضائل والرذائل ، التى يرتاح الانسان إلى رؤيتها مصورة معروضة ، كما أن تلك الخرافات ، بما تقص من وقائع بعيدة العهد وتعرض من مشاهد نازحة المزار ، تروى فى النفس حب البعيد والشغف بالماضى القديم والولوع بالمثل الأعلى ، وهى النزعة التى تعرف فى الانجليزية بالرومانس ؛ زد على ذلك أن استمارة مشاهد تلك الخرافات ووقائعها وأسماءها فى الوصف ، يكسب التشبيه قوة ووضوحاً . فما أجود قول امرئ القيس ، وليت الشعراء أكثروا الضرب على وتيرته :

أيقتلنى والمشرفىُّ مضاجعى ومسنونةٌ زرق كأنياب أغوال ؟

لذلك حفل الأدب الانجليزى بالخرافات الانجليزية ، وما تحوى من جسائم الأعمال وبدائع الصور ، كحروب الملك آرثر ومغامرات فرسان المائدة المستديرة ، تلك التى كانت وحياً لسبنسر وتنيسون فى أجود قصيدها . ولم يكتف الأدباء بخرافاتهم الوطنية ، فاصطنعوا خرافات اليونان والرومان ، وتحدثوا طويلاً عن آلهتهم واقتبسوا كثيراً من الالياذة والأوديسة ؛ وزاد غيرهم فاستماروا خرافات كل من عرفوا أو سمعوا عنهم من أمم الغرب والشرق : فاتخذ ملتون لقصيدته الكبيرة سمسون الجبار موضوعاً عبرانياً ، وتحدث تنيسون عن هارون الرشيد ، وطار كولردج على جناح الخيال إلى قصر قبلاى خان عاهل الصين . أما شكسبير فاستمار مواضيع رواياته من كل ما أصاب من تراث الأمم لا فرق بين تاريخيها وخرافيها ، ورصعها بما كان لا يزال يساور أهل جيله من اعتقاد فى عجائب السحر والمعجزات

ومن الأدباء من لم يكفه كل هذا المدد الزاخر من غرائب الأساطير وأفانين خيال الأقدمين ، فأطلق لخياله هو نفسه العنان ، وابتكر مواضيع لقصائده من صنعة الوهم ، وحلاها بروائع الصور وممتع الخطرات ، كما فعل كولردج فى خريدته الملاح القديم ، وبرونتج فى فريدته تشايلد رولاند ، وتوماس هود فى أنشودته أيتس الحسناء ، وكما صنع سويفت فى كتابه العالمى الصيت « رحلات جليفر »

ألفى أدباء الانجليزية فى أرجاء تلك الخرافات ، مجالاً رحباً لفهم وخيالاً ، وتحريراً لأفكارهم من عقال الحقائق المتحجرة ، وغذاء لعقولهم الجوالة فى مظاهر الكون وشئون الخلق ، المستطلعة إلى المجهول ، ووسيلة لتصوير المناظر الطبيعية ، بين جبال ووهاد ، وغياض ومياه ، ورصعوا أشعارهم فى كل ذلك وكتاباتهم بأشتات الآراء ، فى المسائل التى كانت تشغل أذهان معاصريهم ، ولوَّنوا خرافات الأجيال المتقادمة بألوان أجيالهم ومجتمعهم الذى عاشوا فى مضطربه

أما موقف العرب من خرافات أسلافهم — حين اعتنقوا دينهم الحنيف وتحضروا وتثقفوا — فكان غير هذا : فقد أعرضوا عنها ترفعاً وازدراء ، ولم يحفظوا منها إلا ما كان أشبه بالصدق ، وما دار حول يوم عظيم من أيامهم ، أو شاد بمجد بعض قبائلهم . وفى تلك الحال كانت الروايات تُختلق اختلاقاً ، ويُبذَل الجهد لوسمها بميسم الصدق . ولما اطلع العرب على ثقافات الأمم الأخرى من يونان وفرس وهند ، لم يهتموا إلا بما صدَّقوه من تواريخهم ، وما استملحوه من حِكَمهم وأمثالهم ، ولم يَمنَّ لأحد من الأدباء أن يستخدم الخرافة مادة لفنه ، أو يستعير ما فيها من جمال وروعة ليفيد بهما أدبه

وغاية ما يذكر فى هذا الباب ، أن بعض الأدباء — كابن دريد أطلق لخياله شيئاً قليلاً من الحرية ، ومفى يخترع الروايات والنوادر ، يفسر بها بعض الأمثال السائرة المنحدرة من عهود الجاهلية ، كقولهم « عند جهينة الخبر اليقين » ، و « الصيف ضيعت اللبن » ، و « جزاء سنمار » ؛ وقد أخرج من صنعوا ذلك أحاديثهم بخرج الحق ، وأسندوا بعضها ، كى يضمنوا لها الرواج بين المتأدبين ، كما أن أصحاب المقامات الذين أسلسوا لخيالهم

العنان قليلاً حرصوا على ألا يبعدوا كثيراً عن حيز الامكان ، لئلا يُعرض عنهم أولو الألباب

ذلك بأن العرب كانوا شديدى الحرص على العلم الصحيح حيث ثقفوه ، موكلين بالصدق التاريخى ، زاهدين جدا فى الأساطير وجمحات الخيال ، وهو خلق أورثهم إياه دينهم منذ اعتنقوه ، فانه وإن أثبت وجود الجان وائتمارهم بأمر سليمان ، واستماع نفر منهم إلى القرآن ، قد أوسع أساطير الأولين سخراً واستخفافاً ؛ وكثيراً ماجمع بينها وبين الشرك ، وهو قد حَبَّ ما قبله مما هو شبيه بالكفر والزيغ ، ودعا المؤمنين إلى التفكير فى خلق السموات والأرض ، وطلب العلم الصحيح ، فلا غرو أن زهد المسلمون فى تخريف الجاهليين وأوهامهم ؛ وقد زادهم نفرة من الأساطير وتختلق الأقاصيص ما تنبهوا اليه من جرأة بعض الدخلاء والمغرضين على الأحاديث النبوية ، يخترعونها ويفسرونها بما تمليه أهواؤهم

زد على ذلك أن الاسلام قد حرم الخمر ، وهو تحريم راعته أغلبية الأمة ، وإن تجاوزه بعض الشعراء ، بل الخلفاء والكبراء . وهذا الامساك عن السكر قد كسب الأمة عامة صفات التؤدة والصحو والتوقر والاحجام عن مجاراة الخيال ، والتحليق فى فضاء الأوهام ؛ وطبيعة بلادهم ذاتها تبث هذا الصحو فى طبائعهم ، فانها فى الغالب مصحية سريعة التحول من وضح النهار إلى حلك الظلام ، لا تطول بها كما تطول فى البلاد الشمالية فترات ذلك التحول ، من غلس وغسق ، ولا يكثر بها انتشار الضباب الذى يحجب الأشياء إلا أشباحها ويوقع فى النفس التوجس والوهم ، والخرافة الانجليزية حافلة بتلك المشاهد بين غلس وغسق وضباب

كل ذلك جعل مثقفى المسلمين سريعين إلى إنكار الخوارق ونبذ الاغراب والسخرية من المغربين ، فدعبل الخزاعى مثلاً يهزأ ملياً بنفر من قبيلته ذاتها زعموا أن أحد أجدادهم حادث ذئباً ، فهو يقول :

يتهكم علينا بأن الذئب كلمكم فقد لعمرى أبوكم كلم الذيبا

فكيف لو كلم الليث الهصور ؟ إذن

أفنيتم الناس ما كولا ومشروبا

ومن جهة أخرى لم يحس أدباء العربية كبير حاجة إلى ذلك الضرب من الأدب ، تحفزهم إلى التأول فى الدين وتمييز ما نهى عنه مما لم ينه ، فهم لم يكونوا شديدى الولع بتقصى مناظر الطبيعة وتصويرها ، فيتوسلوا للتفنن فى ذلك بالطيران على أجنحة الخيال إلى شتى المناظر والأودية والشطآن ؛ ولا كانوا شديدى التوفر على نقد أحوال عصورهم السياسية والاجتماعية ، فينتزعوا لذلك الصور من خرافات الأقدمين مماثلة لصور مجتمعهم ؛ أضف إلى ذلك ما لازم الأدب العربى دائماً من نزعة محافظة وولع بمحاكاة بدائع المتقدمين ، ولما لا طموح معه إلى تجديد شديد البائنة لمناهجهم فى الأدب

تلك هى العوامل التى صرفت أدباء العربية عن الاحتفال بالأساطير ، وجعلتهم جميعاً يسلكون الطريق « المباشر » للافصاح عن خواطرهم ، طريقة القصائد المتوسطة الطول ، والأبيات المحكمة الموجزة ، ورائدهم قول قائلهم :

وإنَّ أشعر بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته : صدقا

وقد رُوى أن سهل بن أبى غالب صنَّف كتاباً فى سير الجن وأحوالهم ورفعه إلى الرشيد ، فقال له الخليفة : إن كنت رأيت ما ذكرت فقد رأيت عجباً ، وإن كنت اخترعت ما رأيته فقد وضعت أدباً . ولكن أحداً من معاصرى ذلك المؤلف أو من جاءوا بعده لم يحفل بهذا الضرب من الأدب ، وأهمل الكتاب حتى ضاع

أقصيت الخرافة عن حظيرة الأدب العربى ، وتركت للعامة يخففون بالاستماع اليها أعباء عيشهم ، ويُسرُّون بالانصات إلى مغامراتها ومصاولاتها هموم حياتهم المتشابهة الرتيبة ، ويلونها لهم القُصَّاص بألوان الدول المتعاقبة والأحوال المتوالية ، وتنفث فيها السياسة أحياناً أغراضها ، حتى أتيح لها مَنْ دَوَّنها فكان منها أقاصيص ألف ليلة وليلة ، وعنترة ومهلهل ، وسيف بن ذى يزن ، وقد اطلع عليها بعض أدباء العربية فى العصر الذى دُوِّنت فيه فاستخفوا بها ونبذوها

بيد أن تلك الأقاصيص على عاميتها وركاكة أسلوبها ، وفحش بعض مواقفها ، تحوى من روائع الوقائع ، وجميل المناظر ، وآثار الخيال ، ما يعوز الأدب العربى كله ؛ وبفضل ما فيها من روعة وجمال وخيال قد نالت الخلود وحظيت بالشهرة والترجمة إلى شتى اللغات ، وأعجب بها من الغربيين من لم يسمعوا بحِكَم المتنبى ، وأمثال الطائى ، وبديع ابن المعتز

فتحى أبو السعود